الملامح العلمية والمنهجية للأرجوزة السينائية في المسائل الطبية

د. سمية محمود الجربي
قسم الفلسفة/ كلية الآداب
جامعة طرابلس

مقدمة

يعد الشيخ الرئيس أبو الحسين بن عبد الله بن الحسين بن علي بن سينا[1]، عالماً موسوعياً له العديد من المؤلفات في مخلف العلوم، كالفلسفة والفلك والطبيعيات والموسيقى والطب والهندسة... وغيرها. إلا أن اهتمامه يبدو جلياً وبصورة خاصة بالفلسفة وعلم الطب. فقد استطاع أن يجمع بين العلوم البحثية والعلوم التطبيقية على حد سواء[2] مما دعا بعض النقاد والمؤرخين إلى الحيرة في وصفه، فالبعض اعتبره فيلسوفاً أكثر منه طبيباً؛ وذلك نظراً لما أبدعه من مؤلفات تحمل العديد من التحليلات والشروحات والنظريات الفلسفية ، التي تُعد من أهم العمد في تاريخ الفكر الفلسفي الإسلامي ، بينما يعتبره البعض الآخر طبيباً بارعاً، حتى أنه قد لُقب بـ "الشيخ الرئيس" لمكانته وتميزه في علم الطب والطبيب، إذاً هو الأمير بين الأطباء في دراسته لعلم الطب وبراعته وخبرته وابتكاراته فيه دون منازع.

ويبدو أن العلاقة بين دراسة الفلسفة والطب قد تلازمت عند بعض

1)ولد ابن سينا سنة (370-980م) في قرية أفشنة قرب مدينة بخاري، كان أبوه فارسيالاصل تزوجأمه في أفشنة ، وانجب منها – الحسن والحسين ،وكان والده واخوه من الاسماعلية، وقد ترجم لنفسه جزءاً كبيراً من سيرته الذاتية التي دونها ثم أكملها فيما بعد صاحبه أبو عبيد الجوزجاني" القفطي. تاريخ الحكماء، تحقيق: يوليوس ليبرت، ترجمة محمود عوني، مكتبة الآداب، القاهرة 2008م، ص ص 26_413، كذلك ابن أبي اصيبعة، طبقات الأطباء، ج3، دار الثقافة، بيروت، 1987م، ص ص 3_29.

2)عمرو فروخ وآخرون، تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، ط بيروت، 1966م، ص 173.

العلماء والفلاسفة حيث يبدو أن ابن سينا لم يكن الفيلسوف الوحيد الذي جمع بين العلمين، بل هناك العديد من أعلام الفكر الفلسفي الإسلامي، أمثال الكندي وأبي بكر الرازي، وابن رشد...وغيرهم. "حيث قدر للطب أن يكون وسطاً بين العلوم، فهو يتصل من ناحية بالفلسفة العامة، ويتصل من ناحية أخرى بالحقائق والتجارب العلمية[3]، وتبدو علاقته بالفلسفة على ما ساد في عصر ابن سينا من حيث كونها أمًّا للعلوم جميعاً وأنفعها وأشملها على الإطلاق.

ولعل أهم ما دفعني لكتابة مقالتي هذه : أولاً الإشارة إلى أهمية الشيخ الرئيس كعالم طبيب، فالعديد من الباحثين من ذوي الثقافة والعلم المعاصرين يجهلون دوره العظيم في تطور وازدهار علم الطب، ثانياً تسليط الضوء على مؤلف مهم في تراثنا العلمي العربي، وهو "الأرجوزة السينائية في المسائل الطبية" ، وإبراز قيمته العلمية والمنهجية، وإذا كان كتاب القانون في الطب هو المرجع الأساسي لعلماء الطب خلال العصور الوسطى، فإن الأرجوزة كانت معتمدة كمقرر دراسي لطلاب الطب، وذلك لكونها موجزاً للقانون ولدراسي الطب، ثالثاً التعريف بنظرية ابن سينا الطبية من خلال الأرجوزة والتي سادت الفكر العلمي للعديد من القرون.

يذكر أن الشيخ الرئيس قصة رغبته في تعلم الطب، وكيف أنه علم تسهل دراسته وتحصيله مقارنة بالفلسفة والمنطق قائلا: " ثم رغبت في علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة، فلا جرم انني برزت فيه أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرون عليّ علم الطب وتعهدت المرضى فانفتح عليّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف" [4] فقد شاعت شهرته بالتطبيب ولم يبلغ السابعة عشرة ومعنى قوله: "فانفتح عليّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف" إنه لم يكن مجرد آخذ من الطب اليوناني وناقلاً وحافظاً له فحسب، ولكنه كان رجل تجديد وابتكار

3) سليمان قطاية ، في التراث الطبي العربي ، مجلة التراث العربي ، العددان 5،6 دمشق ،1982،ص 152.

4) ابن ابي اصيبعة، طبقات الأطباء، دار الثقافة ، بيروت 1987، ج3، ص 5.

وتجارب[5]. ونبرهن على ذلك من خلال إسهاماته و ابتكاراته الطبية التي لم يسبقه لها أحد.

***- إسهامات ابن سينا في المجال الطبى :**

لقد قدم ابن سينا الكثير من الاكتشافات والإسهامات العظيمة في مجال الطب ، إذ يعدّ أول من وصف الالتهاب السحائي ، وأول من ميز بين الشلل الناتج عن سبب داخلي في الدماغ ، والشلل الناتج عن سبب خارج عنه . كما أنه أول من قدم وصفاً للسكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم . كذلك قام بتشخيص شلل الوجه، وداء الجنب وخراج الكبد والتهاب الحيزوم[6].

ووضع ابن سينا كذلك تشخيصاً كاملاً للجمرة المخمية المعدنية ، أو كما تسمى الآن باسن "الجمرة الخبيثة" التي تصيب الماشية والخيل ، ووصف داء اليرقان والطفيلة المسؤولة عنه والأمراض التي يسببها ، وهي دودة مستديرة تسمى اليوم (الأنكيلوستوما) " فسبق بذلك دوبيني الإيطالي بتسعمائة سنة . فقد قام أحد الأطباء المعاصرين بفحص ما جاء في الفصل الخاص بالديدان المعوية من كتاب (القانون) فتبين له أن الدودة المستديرة التي ذكرها ابن سينا هي ما نسميه الأنكيلوستوما . وقد أخذ جميع المؤلفين في علم لطفيليات بهذا الرأي في المؤلفات الحديثة . وكذلك أخذت به مؤسسة روكفلر[7]" .

وهو أيضاً أول من وصف مرض الفيل وانتشاره في الجسم ، ومرض اللوزتين وكيفية استئصالهما ، وعرّف السرطان بأنه الورم الصلب الذي ينتقل من عضو إلى عضو ، ووصف سرطان الكبد والأحشاء والثدي وأورام داء الخنزير[8]. كما "أولى ابن سينا اهتماماً بالغاً لمعرفة تنقل المرضمن واحد إلي آخر أو مانسميه الآن بالعدوى كما يقول"وليم أولسر" في كتابه "تاريخ الطب"[9] ، وقد سبق غيره إلى معرفة بعض الأمراض التي تنتقل عن طريق مياه الشرب ، فتصيب الأصحاء بتلك الأمراض، وأنه أرجع أسبابها إلى حيوانات دقيقة لا

5) أحمد حسين القرني، قصة الطب عند العرب، مراجعة، مصطفى شفيق، دون معلومات نشر، ص80.
6) راجع عمرو فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، ص 174 .

7) محمد عبد الرحمن مرحبا ، مرجع سابق، ص 298 .
8) راجع ، نفس المصدر .
9) د. بركات محمد مراد، ابن سينا الفيلسوف التجريبي والمحلل النفسي الإكلينيكي ،مجلة حراء،السنة الثانية،ع 8، سنة2007 .ص30

ترى بالعين يتناولها الإنسان في الماء دون أن يشعر بها ،أيضاً يعد ابن سينا أول من اكتشف ووصف عضلات العين الداخلية ، بالإضافة إلى وصفه لبعض الحالات الخاصة بالأمراض الجلدية والتناسلية والبولية والعصبية [10].

***- مكانة علم الطب بين العلوم عند ابن سينا :**

الطب عند ابن سينا مبحث من مباحث العلم الطبيعي، يقول إن الحكمة هي: "استكمال النفس الإنسانية بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية والعلمية على قدرة الطاقة الإنسانية"[11] ، والحكمة قسمان نظرية وعملية ، لكل منهما أقسام ثلاثة:

-الحكمة العملية تنقسم إلى المنزلية والخلقية والمدنية السياسية.

-الحكمة النظرية أقسامها هي الحكمة الطبيعية، أو ما يطلق عليها الحكمة السفلى، والحكمة الوسطى أو العلوم الرياضية ،و الحكمة الإلهية وهي الحكمة العُليا، وذلك لرفعة موضوعها وعلو مباحثها وذلك بحسب درجة التدرج والاستقلال عن المادة . وهذا عين تقسيم ارسطو للفلسفة النظرية[12]، ويؤخذ من هذا أن الفلسفة والرياضيات كانت عند الشيخ بالمنزلة الأولى التي تتقدم على الطب والعلوم الطبيعية .

وبدلك تكون مكانة الطب : "من أقسام الحكمة الفرعية الطبيعية: والغرض فيه معرفة مبادئ جسم الإنسان وأحواله من الصحة والمرض وأسبابها ودلائلها ليدفع المرض وتحفظ الصحة" [13]، وذلك لأن العلم الطبيعي هو بحث في الأمور التي تتعلق بالمادة حداً ووجوداً وتأثراً، بداية من الإجرام إلى الأفلاك وصولاً إلى العناصر الأربعة ، وما يتكون منها أجسام، وما يفعل فيها من كيفيات كالحركة والسكون والتغيير والاستحالة والكون والفساد، فموضوعه إذا: الأجسام بما هي واقعة في التغيير وبما هي موصوفة بأنحاء الحركات والسكنات ..وبذلك يكون الطب أحد فروع العلم

10) راجع ، التجاني الماحي ، مقدمة في تاريخ الطب العربي ، ص 88 – 89 .

11)ابن سينا، تسع وسائل في الحكمة و الطبيعيات، ترجمة: حسين ابن اسحق، مطبعة الجوانب، ط 1، القسطنطينية، تركيا، 1298،ص2.

12)حمد عاطف العراقى ،الفلسفة الطبيعية عن ابن سينا،دار المعارف ، ط2 ،ص43..

13)ابن سينا، رسالة في العلوم العقلية، ضمن كتاب: المذهب التربوي عند ابن سينا من خلال فليفة العقلية، دراسة وتحليل: الأمير.ز. شمس الدين، دار الكتاب العالمي، ط1، بيروت،1988م،ص226.

الطبيعي الذي هو قسم من أقسام الفلسفة النظرية، الذي يبحث في الجسم المحسوس من جهة ما هو كذلك، وفي كل ما يحرص له من عوارض سواء داخلية أو خارجية، فالعلم الطبيعي هو من ألصق العلوم بعلم الطب من حيث موضوعاته وأقسامه.

الأرجوزة ومكانتها بين مؤلفات ابن سينا الطبية:

اهتم ابن سينا بدراسة الطب والتأليف فيه، فله ما يقارب 276 كتاباً ورسالة في مختلف العلوم، أما مصنفاته الطبية فهي من سبيل الذكر لا الحصر هي: كتاب القانون، وكتاب القولنج، وكتاب الأدوية القلبية ، ومقالة في النبض بالفارسية،ورسالة في السنكجبين[14]، ومقالة في حد الجسم، وتعليق مسائل حنين في الطب، وقوانين ومعالجات طبية، ومسائل عدة طبية، وعشرون مسألة سأل عنها بعض أهل العصر[15]، كذلك ألف ابن سينا عدداً من الرسائل، كرسالة علم الطب، والأدوية، والأمراض الجزئية، والأمراض المركبة ، وفي النبض، وقد ترجمت كثير من مؤلفاته إلى الفرنسية واللاتينية والانجليزية، وانتشرت انتشاراً عظيماً في الدول الأوروبية، وقد كانت ومؤلفاته تدرس في الجامعات الأوروبية ، بعد وفاته بستة قرون، إذا إن أساتذة جامعة مونيبيله لم يكفوا عن شرح كتابات ابن سينا في الطب إلا منذ خمسين سنة فقط. وذلك يدل على مكانة ابن سينا في تطور علم الطب، وما قدم من إسهامات وإنجازات للطب جعلت منه منهلاً ودستورا تعتمده الجامعات والكليات الأوروبية لقرون كثيرة كمصدر موثوق به لمن أراد أن يتعلم الطب ويعلمه.

كذلك كان لابن سينا بالإضافة إلى الرسائل والكتابات والمقولات قصائد شعرية تعليمية، يطلق عليها "الأراجيز"، ألِفها وصاغ من خلالها العديد من العلوم الطبية، وأشهر أراجيزة الطبية وهي الأرجوزة السينائية في المسائل الطبية أوالألفية في الطب ، والتي سوف نقف عندها بالشرح والتحليل فيما يلي، فنقول **أولاً:** ان "الأرجوزة في اللغة هي القصيدة من بحر الرجز، وجمعها أراجيز، والرجز بحر من بحور الشعر أصل وزنه مستفعل

14)السنكجبين: مركب علاجي من الخل والعسل. ابن النفيس، المجز في الطب، تحقيق : يحي مراد، دار الكتب العلمية ، بيروت 2004، ص93.
15)ابن أبي اصبعية، ج3، ص ص 27،28.

ست مرات، والراجز والرجّاز من ينشد الرجز أو يصنعه، ورجز الراجز رجزاً، أي أنشد أرجوزة، وترجز الحادي، حدا بالرجز [16].

والجدير بالذكر أنه "قد وثق الباحثون في الحضارة الإسلامية تراثاً للشعر العربي فريداً من نوعه ومنقطع النظير، دوّن الشعر فيه ما تم من تقدم علمي خلال الحقبة الإسلامية، ليس فقط في علوم اللغة وعلوم الدين وبقية العلوم الإنسانية، بل أيضاً في العلوم الطبيعية" [17]. فقد كان شائعاً في عصر ابن سينا أن تنظم العلوم بما فيها الطب وغيره على هيئة الشعر، إذ إنه وسيلة تعين المؤلفين على مشقة نقل المعرفة، فالتلميذ يحفظ المنظومة، والشيخ يشرحها بعد ذلك متوسعاً في استنباط المعاني من المتن فيصل العلم لتلميذه عن طريق الحفظ والفهم والاستيعاب والشرح والتحليل في آن واحد. ويُحكى أن ابن سينا ما كان ليسمح لتلاميذه بالجلوس إليه والتلقي عنه، إلا بعد أن يحفظوا أرجوزته عن ظهر قلب[18].

وفي فهرس المخطوطات المصورة الذي أصدره معهد المخطوطات العربية كما في قائمة المصادر والمراجع التي نشرها الدكتور صلاح الدين منجد، أحصت لابن سينا سبع أراجيز في الطب[19]، أرجوزة في التشريح، وأرجوزة في تدبير الصحة، وأرجوزة في الوصايا الطبية وهي في تحديد الأوقات المختارة لتعاطي الأدوية، وأرجوزة في المجربات الطبية، وأرجوزة في الفصول التي يستحسن فيها تناول الطعام، وأرجوزة في حجر الزخيرة، وتسمى أيضاً أرجوزة الباءة، وأخيراً أرجوزته الشهيرة "المنظومة في الطب" أو ما يطلق عليها ألفية ابن سينا في الطب، ورغم أن عدد أبياتها تعدى الألف إلى ألف وثلاثمائة وستة وعشرين بيتاً شعريا. يذكر الدكتور ماهر عبد القادر [20] أن ابن سينا قد ألف الأرجوزة ليُلخص فيها كتابه الموسوعي: القانون في الطب،

16)أبو شادي الروبي، محاضرات في تاريخ الطب العربي، دار المريخ للنشر، ط1، الرياض،1988م، ص19.

17)أ.د. ريج السعيد عبد الحليم، الدور العلمي والتعليمي للشعر العربي في الحضارة الاسلامية، مؤسسة العلوم والتقنية والحضارة. ص2.

18)حسين علي، التفكير العلمي عند ابن سينا، القانون في الطب ، دار قباء للطباعة ، القاهرة 2004 ، ص28.

19)أبو شادي الروبي، المرجع السابق. ص ص 16،20.

20)ماهر عبد القدر، مقدمة في تاريخ الطب العربي، دار العلم للملايين،ط1،بيروت، 1988م، ص 83.

وهو من أهم ما صُنف في علم الطب في ذلك الوقت، إذ يعد جامعاً لمعارف الطب في عصره لاحتوائه على خلاصة علوم القدماء التي أجراها الأطباء الذين سبقوا ابن سينا، فضلاً عن إحصائه لإنتاج علماء الطب القدماء، فقد جمع ابن سينا في هذا الكتاب ما عرفه الطب القديم إلى ما ابتكره هو نفسه من آراء ونظريات ووصفه من أمراض، وينطوي هذا الكتاب أيضاً على شرح وافٍ لكثير من المسائل وعلى طرق تحضير العقاقير الطبية، وقرن ذلك كله ببيان عن ملاحظاته الشخصية .

كما لم يقتصر كتاب القانون على حصر وجمع ما قد سلف من علاجات ونظريات للأطباء القدماء فقط دون ذكر لأي إنتاج فكري وعلمي لطبيبنا الشيخ الرئيس، وهذا يعد في حد ذاته تفنيداً للرأي الذي يتهم العلماء العرب بالعقم الفكري واقتصار دورهم على الجمع والنقل والترجمة لما سبقهم من تراث يوناني أو فارسي أو غيره. ولكن هاهنا تتضح لنا قيمة أمير الأطباء الشيخ الرئيس من خلال إنتاجه وإبداعه واكتشافاته، وكذلك أسلوبه في عرض معلوماته ونظرياته.

وعليه فقد وضع ابن سينا أرجوزته؛ لتكون مرجعاً مختصراً لكتابة القانون، وجعله متناولاً في أيدي طلاب الطب، ليسهل حفظه وتحصيله، "لقد لخص ابن سينا من خلال أرجوزته في الطب كتاب القانون، التي تقع في حوالي1329 بيتاً، ترجمت إلى اللاتينية في العصور الوسطى، ونقلت إلى الفرنسية في الجزائر عام 1956م، وهذه الأرجوزة في الطب بمنزلة ألفية ابن مالك في النحو.

يبدأ ابن سينا أرجوزته بمقدمة نثرية، يذكر من خلالها السبب الذي دفعة لكتابة الأرجوزة وإحصائها العلوم الطبية بصورة مختصرة ليسهل تعلم الطب ولحفظ الصنعة من أدعياء الطب، وهم غير ذلك، ثم يكتب مقدمة أخرى شعرية من بحر الرجز، يجعلها في حمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على أفضل الأنام، سيدنا محمد، ثم يبدأ في أرجوزته بتعريف الطب وأقسامه

ويجب الإشارة هنا إلى أن الشيخ قد فطن إلى من قد يتعجب من نظمه لأرجوزة شعرية تحوي علوماً طبية وكأن المجالين بعيدان بعض الشيء عن الربط بينهما،

لذلك نجده يذكر بيتين في المقدمة، يقارن فيهما بين الشعراء والأطباء ويعتبرهم من أفاضل الناس، وأن لكل منهما هدف، يكمل بعضها بعضاً فكما الشعر يهذب النفس ويعلمها الفصاحة، فإن الطب يخدم الجسم يؤدي به إلى الفصاحة، وهنا يتضح أنه جعل العلاقة بين الشعر والطب كالعلاقة بين النفس والجسد، يقول:

والشعراء أمراء الألسن
كما الأطباء ملوك البدن
هذا يسن النفس بالفصاحة
وإذا يطب الجسم بالنصاحة[21].

وإن كان قد جعل للأطباء على الشعراء درجة، بين الأمراء والملوك، وبذلك يكون علم الطب لديه أرفع وأنبل من الشعر وعلم اللغة.

يقول ابن سينا في المقدمة النثرية للأرجوزة، السبب الذي من أجله قام بكتابة الأرجوزة، "ولما رأيت صناعة الطب بأرض فارس عارية من محاضرات المجالس، ومناظرات البيمارستانات والمدارس، وقد استباح الطب من لا مادة له من فنونه، ولا معرفة له بقانونه، ولا صورة له في نفسه، ولاسيما مع قلة درسه، فتصدّر وتشيّخ من لم يكن في صناعةٍ رَسَخَ"[22]، كما يذكر في تعريفه للطب في أول أبيات الأرجوزة عنواناً "في حد الطب" وكأنه قد أراد منذ المقدمة ومن العنوان الأول أن يقدم الأساس والقاعدة الثابتة للطب عن بقية العلوم، وأن يكون دستوراً لجميع الأطباء من بعده ليعودوا إليه كلما استعصت عليهم مشكلة طبية ما، وكي يُبعد عن الطب وممارسته أيّ مدعً للعلم الطبي وهو في الأصل غير عالم به وبأصوله[23].

كذلك قوله رجزاً:

وهذه الأرجوزة قد اكتملت
فيها جميع الطب علما وعمل
فها أنا مبتدئ بنظـــــــم
منثور ما حفظته من علـــم[24]

أي أنه أراد أن يضع جميع ما جاء في كتاب القانون، أي ما لديه من علوم طبية سواء علم (الجزء النظري) أو (الجزء العملي) ويشمله في هذه الأرجوحة

21)ابن سينا، الأرجوزة السينائية في المسائل الطبية، ضمن مؤلفات ابن سينا الطبية، تحقيق: محمد زهير البابا، معهد التراث العلمي العربي، حلب، 1984م،ص 90.

22)نفس المصدر ، ص 89.
23) حسين علي، الفكير العلمي عند ابن سينا، القانون في الطب، دار قباء للطباعة، القاهرة 2004، ص26.
24)ابن سينا ، الأرجوزة ، ص 91.

ليســهل علــى دارســي الطــب اســتيعابه وحفظه.

***- تعريف ابن سينا للطب :**

يعرفـه بأنـه: " حفـظ صـحة بـرء مـرض * من سبب في بدن منه عرض"[25].

هذا التعريف للطب تعريف مدهش في شموليته مع إيجازه، إذ يكاد أن يجمع كل فروع الطب ومراحل دراسته حتى عصرنا الحاضر، ومن الملاحظ ان ابن سينا كان مهتماً بتحليل وتوضيح وتعريف الألفاظ التي يستخدمها كطبيب ويبدو ذلك تأثراً منه بدراساته الفلسفية والمنطقية. ففي قوله: (الطب حفظ صحة) نجده يماثل ما نعرفه اليوم بالطب الوقائيPrevention، وقوله (برء مرض) أي الطب العلاجي Therapy،كذلك قوله (من سبب) أي دراسة علم الأمراضSymptomatology، وعلم الجراثيم وعلم الطفيليات أي الأسباب المؤدية إلى الأمراض Etiology ، وقوله (في جسم) يقابل دراسة علم التشريح Anatomy، وعلم وظائف الأعضاء Physiology، وعلم الأنسجةHistology، والكيمياء الحيوية Bio chemistry ،

25)نفس المصدر ، ص92.

وأخيراً قوله (عنه عرض) أي الطب السريري وما يعرض له من أعراض تصاحب الأمراض، وتميزها عن بعضها البعض. وبدلك يكون ابن سينا قد عرّف علم الطب وفروعه في بيت شعري واحد، وهدا وإن دل فإنما يدل على منهجية ابن سينا المنطقية الصحيحة في التبويب والتقسيم والترتيب .

أوضح من ذلك أن الطب هو العلم المختص بالاحتفاظ بالصحة واستقصاء سبل إعادة التوازن للبدن في حالة غيابها التي نُعرفها بالمرض، وهكذا يمكننا القول بأن الطب هو المعرفة والفعل، وأن موضوع علم الطب هو: "تشخيص مرض المريض بعد ملاحظة أعراض المرض عليه، ومحاولة اكتشاف الدواء الذي يشفيه من ذلك المرض"[26]، هنا نجد تطابق في تعريف ابن سينا للطب مع الطب المعاصر، فهو علم وتطبيق، يجمع في موضوعه مع النظر والعمل، إذ إنه نظري كسائر العلوم الطبيعية من حيث موضوعه ونهجيته وقوانينه ونظرياته الخاصة عن

26)أحمد محمود صبحي، في فلسفة الطب، دار النهضة، بيروت 1993م،ص 121.

الصحة والمرض ومعالجته، وهو تطبيقي من حيث كونه مجموعة من الأساليب المتقنة المستخدمة في تشخيص الأمراض وعلاجها ووصف الدواء المناسب وحق الجراحات الضرورية إن لزم الأمر.

وإذا بدأنا بالنظر في الأرجوزة الطبية ، نجد أنه ومنذ العنوان الأول " في حد الطب وموضوعاته ، أن هذا الاسم يدل على الطموح البعيد الذي يريده ابن سينا لمؤلفه ، وذلك بأن يكون القاعدة الفاصلة للطب عن بقية العلوم ، وأن يكون دستوراً للأطباء يعودون إليه كلما استعصت عليهم مشكلة ليجدوا فيها الحد الفاصل للنقاش وليظل خالدا أبداً [27] "، وتلك مساعي الفيلسوف الحق في كل زمان ومكان ، يسعى إلي غاية المعرفة وأتمها ، ليصل إلي الحقائق الكلية في ذاتها ، فتحصل لديه بعد ذلك بديهيات و مسلمات يعتمدها أسساً ومبرهنات لأبحاثه ، ومبادئ لأفكاره . أيضا " لقد استفاد ابن سينا من دراساته الفلسفية العميقة وتبحره في المنطق والفلسفة وعقليته الجبارة في تحليل المسائل وتبويبها تبويباً منطقياً سليماً [28] "، فإن أول ما يلفت النظر عند ابن سينا في أرجوزته و كتابة القانون " أنه متأثر في تبويب وعرض حقائق الطب بدراسته الفلسفية والمنطقية ، حيث راعى في تقسيماته أنه يحقق الدقة في حصر مسائل الطب ، واهتم ابن سينا في مقدمة كتاباته برسم دستوره الطبي في التأليف، ويتلخص هذا الدستور في الكلام عن الأمور الكلية ثم الأمور الجزئية "[29] ، وهذا من أهم المناهج الفلسفية التحليلية البحثية المتعارف عليها في ذاك الوقت وحتى عصرنا هذا.

***- تقسيم ابن سينا للطب :**

يقسم ابن سينا الطب إلى قسمين نظري وعملي، وذلك في قوله عن أقسام الطب:

قسمته الأولى لعلم وعمل
والعلم في ثلاثة قد اكتمل
سبع طبيعيات من الأمور
وستة وكلها ضـــــروري
ثم ثلاث سطرت في كالتب
من مرض وعرض وسبب

ولابن سينا في خطابه التعليمي الطبي منهج فريد يقترب به إلى عقل المتلقي بالتبسيط والتمثيل ، فقد كان يتنبأ

27) د / حسين على حسن . التفكير العلمي عند ابن سينا . ص25 .

28) د/ عامر النجار ، في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص 139 .

29) د / جلال محمود موسى ، مرجع سابق ص 77 .

بما قد يخطر بفكر الطالب من تساؤلات ، فيعرض هذه التساؤلات ويشرع في الإجابة عليها ، فيفترض أن أحد الطلبة يسأل عن أقسام الطب النظري والعملي وطبيعة كل منهم ، فيبدأ الشرح ابن والعملي بعد تعريفه لحد الطب بقوله : " إن الطب علم يتعرف منه أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصح ويزول عن الصحة ، ليحفظ الصحة حاصلة ، ويستردها زائلة ، ولقائل أن يقول الطب من الصناعات ما هو نظري وعملي، ومن الحكمة ما هو نظري وعملي ، ويقال إن من الطب ما هو نظري وعملي ويكون المراد في كل قسمة بلفظ النظر العمل شيء آخر "[30] ، والشيخ الرئيس يقسم الطب إلي نظري وعملي ، ولا يقصد بذلك أن من الطب ما هو تعليم عملي من ممارسة واشتغال كما يظن الكثيرون ، بل إن كلا القسمين علماً وليس عملاً وعلماً . ولكن إحداهما علم لأصول الطب ، والآخر علم بكيفية مباشرته ، يقول ابن سينا : "فإذا قيل أن من الطب ما هو نظري ومنه ما هو عملي ، فلا يجب أن يظن أن مرادهم فيه هو أن أحد قسمي الطب هو تعليم العلم والقسم الآخر هو المباشرة للعمل كما يذهب إليه ، وهمّ كثير من الباحثين عن هذا الموضع ، بل يحق عليك أن تعلم أن المراد من ذلك شيءً آخر ، وهو أنه ليس واحد من قسمي الطب إلا علماً ، ولكن أحدهما علم أصول الطب ، والآخر علم كيفية مباشرته[31] ".

1- **القسم النظري** ، وهو القسم الخاص بالنظر في علم الطب ، يقول : " فنعنى بالنظر منه ما يكون التعلم فيه مقيد الاعتقاد فقط ، من غير أن يتعرض لبيان كيفية عمل ، مثل ما يقال في الطب ، أن أصناف الحميات ثلاثة ، وأن الأمزجة تسعة "[32] ،أي أنه " هو الذي يفيد علم آراء فقط من غير أن يفيد علم عمل البته"[33] ، وله أقسام عدة هي : النظر في الأمور الطبيعية – فيما يصرح به الأطباء – والنظر في أحوال البدن والأسباب والعلامات والدلائل ، والعلوم الطبيعية عند ابن سينا سبعة هي الأركان والأمزجة والأخلاط والأعضاء والقوى والأفعال والروح، كذلك أحوال البدن تشمل الصحة

30) ابن سينا ، نفس المصدر ص 29 .

31) نفس المصدر .
32)ابن سينا ، مرجع سابق . ص 24 .
33) نفس المصدر السابق . 261

والمرض وحالة ثالثة لا هذا ولا ذاك ، أما الأسباب فهي الهواء والطعام والحركة ... وغيرها مما سيتم الحديث عنه في موضعه.

2- **القسم العلمي** ، فهو ما " نعني بالعمل منه لا العمل بالفعل ولا مزاولة الحركات البدنية ، بل القسم من علم الطب الذي يفيد التعليم فيه رأياً ذلك الرأي متعلق ببيان كيفية عمل"[34] . فهو العلم الذي يفيد :" كيفية العمل والتدبير ، مثل الجزء الذي يعلمك كيف تحفظ صحة بدن بحال كذا أو كيف تعالج بدناً به مرض كذا ، ولا تظن أن الجزء العملي هو المباشرة والعمل ، بل الجزء الذي يتعلم فيه علم المباشرة والعمل"[35] ، وهذا القسم من علم الطب " ينقسم قسمين ، إحدهما علم تدبير الأبدان الصحيحة أي أنه كيف يحفظ عليها صحتها وذلك يسمى علم حفظ الصحة . والقسم الثاني علم تدبير البدن المريض، أنه كيف يرد إلي الصحة ويسمى علم العلاج "[36] ، أي ما يطلق عليه في الطب الحديث بمصطلحي : الطب الوقائي والطب العلاجي .

ويمكن أن نخلص أو نخرج من هذا التقسيم إلي ما أعطاه ابن سينا للتعليم العلمي والتجريبي من مكانة لا تقل عن التعليم النظري الذي كان له بفضل أسسه القياسية المنطقية النظرية المكانة العظيمة آنذاك في مجال البحث والتعلم. فإن هذا التميز الذي نادى به ابن سينا " من أن الطب علم ملاحظة وتجريب ، فهو نظري أي ما يلاحظه النظر ويراقبه ، ثم تجزبة أي ما تقوم به اليد يحركها الفكر للتأكد والتثبيت مما وصل إليه العالِم عن طريق الرؤية والتفكير"[37]، يعد من أساسيات المنهج الاستقرائي التجريبي التي ظهرت بوادرها حتى القرن السابع عشر ، فجاء فلاسفة أمثال (فرانسيس بيكون) وأطباء أمثال (سايدنهام) فأعادوا إلى الأذهان الفكرة الصحيحة التي نادى بها قبلا ابن سينا" .[38]

وبالعودة إلى أقسام العلوم النظرية الطبية يقول ابن سينا :-

أما الطبيعات فالأركان يقوم من مزاجها الأبدان
وقول بقراط بها صحيح ماءٌ ونار وثرى وريح[39]

34) نفس المصدر السابق . ص 30 .
35)نفس المصدر السابق . ص 261 .
36) نفس المصدر السابق .

37) سليمان قطاية ، كتاب القانون لأبن سينا " مجلة عالم الفكر ، مج7 ،ع2 وزارة الاعلام الكويت 1976 ص 196 .
38) نفس المرجع .
39) ابن سينا ،الأرجوزة ، ص29.

أولاً-العلوم الطبيعية وتنقسم إلى سبعة أقسام هي:

1- **الأركان** : وهى أجسام ما بسيطة ، هي أجزاء أولية لبدن الإنسان وغيره،وهي التي لا يمكن أن تنقسم إلى أجزاء مختلفة الصور، وهى التي تنقسم المركبات إليها ويحدث بامتزاجها الأنواع المختلفة الصور من الكائنات " فهي أصل الأشياء ، وبالنسبة للجسد أبسط أجزاء المركب ، بمعنى أن الجسم الأول باجتماعه إلى أجسام أخرى أولى مخالفة له في النوع يقال أنه اسطقس لها ، ولذلك يعد أبسط أجزاء المركب، أي أصغر أجزاء ما ينتهي إليه، والاسطقس عند التركيب يسمى عنصراً، وهو المحل الأول من الأجسام ، والذي يكون منه سائر الأجسام.

2-الأمزجة مفردها المزاج ، هو " كيفية حاصلة من تفاعل الكيفيات المتضادات إذا وقفت على حد ما،ووجودها في عناصر متصغرة الأجزاء، ليماس[40] أكثر كل واحد منها أكثر الآخر.إذ تفاعلت بقواها بعضها مع بعض حدث عن جملتها كيفية متشابهة في جميعها هي المزاج، فإن ابن سينا بعد أن يأتي على توضيح مفهوم المصطلح الطبي يعتمد إلى تحليله وتقسيمه إلى عناصره، وهذا ما يدل على غاية التعريف و التحديد المتمثلة في أنها مفتاح التحليل والتفكيك ، لتسهيل الفهم والاستيعاب ، فهو يعمد بعد تعريف الأركان إلى ذكر قواه الأولية أي أمزجته وهى أربع : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة "[41]، يقول في الأرجوزة :

وبعد ذاك العلم بالمزاج — إحكامه يعين في العلاج
أما المزاج فقواه أربع — يفردها الحكيم أو يجمع
من سخن وبارد ويابس — وليس ينال جس اللامس
توجد في الأركان والزمان — في الذي ينمو وفي المكان[42]

أي أن معرفة الأمزجة وأحكامها تعين الطبيب في علاج المرضى كذلك فإن

40)يعنى بالتماس: أن يماس القسم الأكبر من أحدها القسم الاكبر من الآخر، وهو ما يسمى اليوم تداخل الالكترونات والنيترونات في كل عنصر منها مع العنصر الاخر.
41)ابن سينا ، القانون فى الطب ، ج1، ص33 .
42)ابن سينا ، الأرجوزة ، ص93 .

قـوة الأمزجــة الأربعــة: الحــرارة والبــرودة واليبوســة والرطوبــة، توجـد فــي الأركـان، فـالتراب مزاجـه بـارد يـابس، والمـاء مزاجهـا بـارد رطـب، والهـواء مزاجـه رطـب ولكـن حـار، وأخيـراً النـار ومزاجهـا حـار يـابس، كذلك توجد فـي الأزمـان أي فصـول السـنة الأربعــة، وهــي المسـؤولة عـن نمـو كـل الكائنات الحية في جميع الأقاليم والأماكن.

ويؤكد ابن سينا أن هذا التركيب ، وهذه الطبـائع والأمزجـة ليسـت مـن الصـدفة أو العبـث الكـوني ، ولكـن الله عـز وجـل هـو الفاعل لكل شيء أفضل ما هو عليه ، فقد تحدث عن مبدأ الغائية في الكون ، يقول : "أعلـم أن الخـالق جـل جلالـه أعطـى كـل حيوان ،وكل عضو من المزاج ما يليق بـه وأصـلح لأفعالـه وأحوالـه بحسـب الإمكـان لـه"[43]، والغائبـة لا تنطبـق علـى الأركـان فقـط ، بـل علـى كـل شـيء ، بدايـة مـن الأركان إلـى الأمزجـة إلـى الأخـلاط وقواها وصـولاً إلـى الأعضـاء ، ومـزاج كـل منهـا حتــى يتكــون الإنســان وتكتمــل جميــع الموجـودات ، ولمـا كـان الإنسـان أفضـل الكائنــات وأكرمهــا عنــد الله فإنــه يحمــل أفضـل الأمزجـة ، والأفضـلية هنـا تقـاس بـالتوازن والاعتدال فـي التكوين والتركيب ، يقـول ابـن سـينا " وأعطـي الإنسـان أعـدل مـزاج يمكـن أن يكـون فـي هـذا العـالم ،مـع مناسبة لقواه التي بها يفعل وينفعل ،وأعطى كـل عضـو مـا يليـق بـه مـن مزاجـه"[44] ، وبذلك يكون الشيخ قد وضـع الأسس التـي سيوضـح مـن خلالهـا (النظريـة الأخـلاط) أي النظرية الطبية المتعارف عليها في ذاك الوقت

3- **الأخـلاط** : يُعرف الخلـط بأنـه: "جسـم رطب يستحيل إليه الغذاء أولاً"[45]. فالغذاء هـو المُولـد للأخـلاط داخـل جسـم الإنسـان والأخــلاط منهــا المحمــود، وهــو الــذي يستحيل من الغذاء إلـى جزء من المتغذي ليصـير جـزءاً مـن جـوهره بمفـرده أو مـع غيره، متشابهاً به وحده أو مع غيره. ومنها فضــلات وأخــلاط رديئــة. وهــي التــي لا تصير أخلاطاً محمودةً إلا نادراً جداً، ويقوم البـدن بـدفعها أو رفضـها خارجـاً للـتخلص منها[46]. وبالجملة فإن "الرطوبات الخلطية المحمـودة والفضـلية تنحصـر فـي أربعـة

43)ابن سينا ، القانون في الطب، ج1، ص 41.

44)نفس المصدر.
45) نفس المصدر. ص 47.
46) نفس المصدر.

أجناس: جنس الدم وهو أفضلها، وجنس البلغم، وجنس الصفراء، وجنس السوداء"[47].

يقول ابن سينا في أرجوزته:

الجسم مخلوق من الأمشاج

مختلفات اللون والمزاج

من بلغم ومرة صفراء

ومن دم ومرة سوداء[48].

وتلك الأربعة هي ما ينشأ عنها جميع الأعضاء والأجساد الحية، وعنها تتمتع الأبدان بالصحة أو تحدث الأمراض. ولذلك وجب فهمها وتعلم أصولها حتى يتمكن الطبيب من التشخيص الصحيح للأمراض وشفائها، ودفع الأمراض.

الخلط الأول هو الدم، وهو حار الطبع رطب، وله صنفان أحدهما طبيعي والآخر غير طبيعي، أما الدم الطبيعي، فلونه أحمر لا نتن له حلو جداً، مزاجه صالح، به تتحقق الصحة ويخلو الجسد من المرض. أما غير الطبيعي فهو قسمان، منه ما قد يتغيره عن المزاج الصالح فيصبح سيء المزاج، ولكن ذلك لا يحدث له لوجود شيء يخالطه فأفسد مزاجه، ولكن قد يسوء مزاجه من نفسه، فيبرد مزاجه مثلاً إن كان سخناً ويسخن إن كان بارداً، ويرطب إن كان يابساً ويبس إن كان رطباً من تلقاء نفسه، والقسم الآخر يحدث بتغير قد يحدث للخلط إذا تعرض لخلط رديء. وذلك الخلط الردئ يرد عليه من الخارج فينفذ فيه ويفسده. وقد يحدث الخلط الردئ بتولد ذاتي فيه، بأن يكون عفن بعضه فإستحال مرة صفراء، وكثيفه مرة سوداء وبقيا أو أحدهما فيه، فاستحال إلى الخلط الردئ. وتختلف رداءة الدم بما خالطه سواء كان ما خالطه بلغماً أو سوداء أو صفراء أو مائي. فقد يصير عكراً أو رقيقاً أو أسود أو شديد السواد أو أبيض، كلّ حسب ما خالطه، وكذلك من جهة الرائحة والطعم، فجميعها دلائل على أنه قد تغير من الطبيعي إلى غير الطبيعي[49].

الخلط الثاني وهو البلغم: وهو أيضا منه ما هو طبيعي، وما هو غير طبيعي، أما الطبيعي فهو حلو رطب بارد، وقد يصير حسب ابن سينا في وقت ما دماً،

47) نفس المصدر. ص 48.
48)ابن سينا، الأرجوزة، ص 8.
49) ابن سينا، القانون، ص48.

لأنه دم غير تام النضج، وهو ليس شديد البرودة بالقياس إلى البدن، ولا قليل البرد بالقياس إلى الدم والصفراء، أما غير الطبيعي فهو أيضا فضلى يستدل عليه بإختلاف قوامه. فمنه المخاطي ومنه الخام والزجاجي والجصّي. ويستدل عليه أيضاً من خلال طعمه، فمنه المالح والحامض والعفص والمسخ وجلها تدل على فساد خلط البلغم[50].

وكذلك المرة السوداء منها الطبيعي ومنها فضل غير طبيعي، والطبيعي هو رغوة الدم، وهو أحمر اللون ناصعة خفيف حاد، وكلما كان أسخن فهو أشد حمرة، فإذا تولد في الكبد انقسم إلى قسمين. فذهب قسم منه مع الدم وتصفى قسم منه إلى المرارة"[51]. أما الصفراء غير الطبيعية فإن خروجه عن مزاجه الصالح يكون لسبب أيضا، إما لمخالطته لخلط غريب سيء فأثر فيه فأخرجه عن طبعه وساء مزاجه، وإما أن يكون خروجه عن طبعه حدث ذاتياً، بأنه في جوهره غير طبيعي"[52].

أما الخلط الرابع فهو السوداء، والطبيعي منه دردي الدم أي الثفل الراسب وطعمه بين الحلاوة والعفوصة. "وإذا تولد في الكبد توزع إلى قسمين، فقسم منه ينفذ مع الدم، وقسم يتوجه نحو الطحال، والقسم النافذ منه مع الدم ينفذ لضرورة ومنفعة. أما الضرورة فليخلط بالدم بالمقدار الواجب في تغذية عضو من الأعضاء التي يجب أن يقع في مزاجها جزء صالح من السوداء مثل العظام، وأما المنفعة فهي أنه يشد الدم ويقويه ويكثفه ويمنعه من التحلل"[53]. والسوداء غير الطبيعية فهي ما ليس على سبيل الرسوب والثفلة فلا ينفذ مع الدم ولا يتجه إلى الطحال، ولكن سبيله إلى الرمادية والإحتراق. بذلك يكون الشيخ قد أجمل القول في الأخلاط الأربعة الطبيعية منها وغير الطبيعية. ولكن كيف أوضح الشيخ الرئيسي ميكانيكية تحول الأخلاط إلى الغذاء.

ويقول ابن سينا في كيفية تولد الأخلاط عن الغذاء، بأن الغذاء، يدخل إلى القسم، فيتم هضمه، الانهضام الأول

50) نفس المصدر السابق. ص 50.
51) نفس المصدر.
52) نفس المصدر. ص50-51.
53) نفس المصدر السابق، ص52.

في الفم تحت تأثير حرارة الريق الغريزية فيه، ثم يرد إلى المعدة فينهضم فيها انهضاماً تاماً بفعل حرارة المعدة وحرارة ما يطيف بها، أما من جهة اليمين فبالكبد وأما من جهة اليسار فبالطحال، وأما من فوق فبالقلب الذي يتوسط تسخينه الحجاب، وأما من أمام فبالثرب الشحمي القابل للحرارة. بسبب الشحم الذي يؤدي بها إلى المعدة فإذا انهضم الغذاء وانطبخ، أصبح له في كل انطباخ شيء كالرغوة وشيء كالرسوب، وربما كان معهما إما شيء هو إلى الاحتراق لشدة الطبخ، أو شيء كالفج لقصور الطبخ، فالرغوة هي الصفراء والرسوب هي السوداء، وهما الطبيعيان –كما سبق الذكر– والفج هو البلغم، وأما الشيء المصفى من هذه الجملة نضيجاً فهو الدم[54].

وبذلك تتولد الأخلاط الأربعة داخل جسد الإنسان مما يتغذى عليه فللغذاء عوامل أخرى تساعد في تكون الأخلاط . يقول ابن سينا: " ويجب أن تعلم أن الحرارة والبرودة سببان مع سائر الأسباب، لكن الحرارة المعتدلة تولد الدم، والمفرطة تولد الصفراء، والمفرطة جداً تولد السوداء بفرط الاحتراق والبرودة تولد البلغم، والمفرطة جداً تولد السوداء بفرط الإجماد"[55].

كذلك بالعودة إلى نظرية العلل الأربعة، فإن الأخلاط تخضع أيضا لتلك العلل المادية والصورية والفاعلية والتمامية، ولكل خلط علله المؤثرة فيه، فالدم سببه المادي هو المعتدل من الأغذية والأشربة الفاضلة، وعلته الصورية هي النضج الفاضل، أما علته الفاعلية فهي حرارة معتدلة، والتمامية تغذية البدن. والبلغم سببه المادي الغليظ الرطب اللزج البارد من الأغذية، والصوري قصور النضج ، والفاعلي حرارة مقصرة، والتمامي ضرورته ومنفعته السابق ذكرها، أما الصفراء فسببها المادي اللطيف الحار والحلو الدسم والحريف من الأغذية، والصوري مجاورة النضج إلى الإفراط ، والفاعلي أما الطبيعي منها الذي هو رغوة الدم فهو حرارة معتدلة، وأما المحترقة فهو الحرارة النارية المفرطة وخصوصاً في الكبد، وأما التمامية فهي الضرورة والمنفعة

54) نفس المصدر، ص54.

55)نفس المصدر، ص55.

السابق الذكر، والسوداء علتها المادية الشديد الغليظ القليل الرطوبة من الأغذية والحار منها قوي في ذلك، وسببها الصوري الثفل المترسب على أحد الوجهين فلا يسيل أو يتحلل، والفاعلي أما الرسوبي منها فحرارة معتدلة وأما المحترق منها فحرارة مجاورة للاعتدال، وسببها التمامي ضروتها ومنفعها المذكورتان[56].

وعليه يمكننا بذلك معرفة أسباب الأخلاط في الجسد الإنساني وهي مقدمات ضرورية ليقف الطبيب من خلالها على أسباب الصحة للأعضاء والأبدان، وكيفية استردادها وإعادتها زائلة. "والأعضاء أجسام متولدة من أول مزاج الأركان"[57]. أي أفضل ما ينتج من الأخلاط وبتعبيره الأخلاط المحمودة الجيدة هي التي يتولد عنها أعضاء الجسد لأهميتها وتميزها بين الموجودات، حالها حال الأخلاط التي منها تولدت، وكانت أول وأفضل أمزجة الأركان، وذلك يعود بنا إلى رأيه في الإنسان، وأن مزاجه هو أفضل أمزجة الموجودات لعلو شأنه ومكانته بين المخلوقات فكان لزاماً أن تكون أمزجته وأخلاطه هي الأفضل.

4- الأعضاء، ويقسم الأعضاء إلى مفردة ومركبة .

- الأعضاء المفردة فهي التي كل جزء من أجزائها مشاركاً لكلها في الاسم والحد مثل اللحم وأجزائه والعظم وأجزائه وهي ما يطلق عليها متشابهة الأجزاء.
- الأعضاء المركبة فهي التي إذا أخذ منها أي جزء من أجزائها لم تشارك بذلك الكل لا في الحد ولا في الاسم، مثل الوجه فإن أجزاء الوجه كالعين والأنف ليست هي الوجه ذاته، ولكنها جزء منه، "وتسمى أعضاء آلية لأنها هي آلات النفس في تمام الحركات والأفعال"[58].

كما يلاحظ تأثر ابن سينا بأرسطو "حيث أعضاء الحسم آلات للنفس تدبرها وتحركها،وحيث الأعلى وهي النفس تؤثر في البدن وهوالجسم "[59] ولهذه الأعضاء المتشابهة ترتيب يبدأ بالعظم باعتباره

56) نفس المصدر.
57) نفس المصدر، ص 59.
58)نفس المصدر، ص 59.
59) د. محمود فهمي زيدان :" في فلسفة الطب ".ص83.

أســاس البــدن، ودعامــة للحركــات، ثــم الغضـروف يليـه العصـب ثـم الأوتـار ثـم الربـاط، ثم الشـريانات ثم الأوردة ثم اللحم ويلـي ذلـك الـدماغ والكبـد[60]. وعليـه فـإن الأعضــاء تنقســم إلــى أعضــاء رئيســية وأخـرى مرؤوسه،فالأعضـاء الرئيسـية هـي الأعضـاء التـي هـي مبـادئ للقوى الأولـى في البدن المضطر إليها في بقاء الشخص أو النــوع. وتنقســم بــدورها بحســب بقــاء الشـخص إلـى ثلاثـة وهـي القلـب والـدماغ والكبـد، أمــا بحســب بقــاء النــوع، فهــي بالإضافة إلى الثلاثة الرئيسية السابقة رابـع يخص النوع هو الأنثيان، وهما قد يضـطر إليهــا لأمــر، وهــو توليــد المنــي الحــافظ للنسل، وينتفع بهما لأجل إفادة تمام الهيئـة والمــزاج الــذكوري والأنثــوي اللــذين همــا العوارض اللازمـة لأنـواع الحيـوان، لا مـن الأشـياء الداخلـة فـي نفـس الحيـوان. أمـا الأعضـاء المرؤوسـة أو الخادمـة، فبعضـها تخدم خدمة مهيأة (منفعة) وهي التـي تتقدم فعل الرئيس، وبعضـها تخدم خدمـة مؤديـة (خدمـة علـى الإطـلاق)، وهـي التـي تتـأخر عـن فعـل الـرئيس ، والقلـب خادمـه المهيـأ هـو الرئـة والمـؤدي هـو الشـرايين، والـدماغ خادمـه المهيـأ هـو الكبـد وسـائر أعضـاء الغذاء وحفظ الروح، والمؤدي هو العصب، أمـا الكبـد فخادمـه المهيـأ هـو الأعضـاء المولـدة للمنـي قبلهـا، والمـؤدي فـي الرجـال الإحليـل وعـروق بينهـا وبينـه، وكـذلك فـي النســاء عــروق ينــدفع فيهــا المنــى إلــى المهبـل، وللنسـاء زيـادة الـرحم وتـتم فيـه منفعة المني"[61].

1-**القــوى** : والقــوى ثلاثــة هــي القــوى الطبيعيـة والحيوانيـة والنفسـانية، ويـذكر ابـن سـينا أن كـلا مـن أرسـطو وجـالينوس قـد اختلفا فـي أمـر القوى إذ يـرى جـالنيوس أن لكـل واحـدة مـن القـوى عضـواً رئيسـياً هـو معدنها وعنه يصدر أفعالها. فالقوة النفسانية مسـكنها ومصـدر أفعالهـا الـدماغ، والقـوى الطبيعيـة لهـا قوتـان إحـداهما غايتهـا حفـظ الشخص وتدبيره بالغذاء ومسكنها هو الكبد، أما القوة الثانيـة فغايتها حفظ النوع ومصدر أفعاله هو الأنثيان، أما القوة الحيوانيـة فهـي التـي تـدبر أمـر الـروح، ومصـدر أفعالهـا هـو القلب"[62]. والرأي الآخـر هـو رأي أرسـطو،

60)نفس المصدر، ص 59-61.

61) نفس المصدر: ص ص 62-63.
62) نفس المصدر السابق.

ويرى: "أن مبدأ جميع هذه القوى واحد هو القلب، إلا أن لظهور أفعالها الأولية هذه المبادئ المذكورة، كما أن مبدأ الحس عند الأطباء هو الدماغ ثم لكل حاسة عضو مفرد منه يظهر فعله"[63].

ويأتي ابن سينا برأيه الخاص فيقول: "إذا فُتش عن الواجب وحقق وجد الأمر على ما رآه أرسطوطاليس دونهم، وتوجد أقاويلهم منتزعة من مقدمات مقنعة غير ضرورية، إنما يتبعون فيها ظاهر الأمور"[64]. فالشيخ نظر وفتش عن صدق الرأيين ووجد أن الحق لدى أرسطو. وبالنظر إلى مقدمات جالينوس ومن معه نجد أنها غير ضرورية وغير صحيحة لذلك أصبحت أقاويلهم وآراؤهم مجانبة للصواب.

أولاً– القوة الطبيعية: و تنقسم إلى قوة طبيعية خادمة وقوة طبيعية مخدومة، والمخدومة أربعة أجناس عادية ونامية ومولدة ومصورة. أما القوة العادية فهي التي تُحيل الغذاء إلى مشابهة المتغذي ليخلف بدل ما يتحلل، وأما النامية فهي الزائدة في أقطار الجسم على التناسب الطبيعي ليبلغ تمام النشء بما يدخل فيه من الغذاء[65]. أما القوة المولدة فهي نوع يولد المني، ونوع يفصل القوة التي في المني فيمزجها عضواً عضواً وتسمى القوة المُغيرة، وأما القوة المصورة الطابعة فهي القوة التي يصدر عنها بإذن خالقها تخطيط الأعضاء وتشكيلاتها وتجويفاتها وثقبها وملاستها وخشونتها وأوضاعها ومشاركاتها[66].

والقوى الطبيعية الخادمة هي خوادم القوة الغاذية، وهي أربعة أيضا الجاذبة، وفعلها هو جذب النافع، والماسكة وخلقت لتُمسك النافع حتى تتصرف فيه القوى المغيرة له الممتازة منه، أما الهاضمة فهي التي تُحيل ما جذبته القوة الجاذبة وأمسكته القوة الماسكة إلى قوام مهيأ لفعل القوة المغيرة فيه، وإلى مزاج صالح للاستحالة إلى الغذائية بالفعل ، وهذا ما يسمى هضماً أيضاً فعلها في الفضول فهي التي تُحيله إلى هيئته الفُضلى لتسهل سبيل دفعه خارج الجسد، وهنا يأتي دور الدافعة فهي تدفع الفضل الباقي من الغذاء الذي لا

63) نفس المصدر. ص ص 130-131.
64) نفس المصدر، ص 131.
65) نفس المصدر، ص 131.
66) نفس المصدر، ص 132.

يصـلح للاغتـذاء أو يفضـل عـن المقـدار الكـافي وهـذه القـوى تـدفع بالفضـول إلـى جهـات ومنافـذ مُعـدة لهـا وإن لـم تجـد هـذه المنافذ فإنها تدفع من العضو الأشرف إلى العضـو الأخـس، ومـن الصـلب إلـى الأرخى[67].

وبـالطبع فـإن هـذه القـوى ليسـت بمعـزل عـن الكيفيـات الأولـى مـن حـرارة ورطوبـة ويبوسـة وبـرودة، بـل علـى العكس فإن الكيفيات تخدم القوى وتعينها على إتمام أفعالها في الجسد"[68].

ثانياً– القوى الحيوانية: وهي "القوى التي إذا حصلت في الأعضاء، هيأتها لقبول الحس والحركـة وأفعـال الحيـاة، ويُضـيفون إليهـا حركـات الخـوف والغضـب لمـا يجـدون فـي ذلـك مـن الانبسـاط والانقبـاض العـارض للروح المنسوب إلى هذه القوة"[69]. ومكانها هو القلب– كما سبق الذكر– وتصل إلى الأعضاء عن طريق الشرايين، وهي التي تؤمن الانقباض والانبساط للعضلة القلبية وللعروق والشرايين[70]. والروح تتولد عن طريق تبخر الأخلاط يقول ابن سينا: " كما قد يتولد عن كثافة الأخلاط بحسب مزاج ما، جوهر كثير هو العضو أو جزء من العضو، فقد يتولد من بخارية الأخلاط ولطافتها بحسب ما هو جوهر لطيف هو الروح"[71].

فالكبد معدن التولد الأول، والقلب معدن التولد الثاني، والروح إذا حدث على مزاجه الأعدل والأفضل والذي ينبغي أن يكون له استعداد لقوة تلك القوة بعد الأعضاء كلها لقبول القوى الأخرى النفسانية وغيرها[72]. فالقوى الثلاثة تبدأ حدوثها بالطبيعية أولاً ثم الحيوانية ثم النفسانية.

والقوى الحيوانية هي المهيئة للحياة، وهي مبدأ حركة الجوهر الروحي اللطيف إلى الأعضاء، ومبدأ قبضة وبسطه للتنسم والتنقي، فهي كأنها إذا قيست بالحياة كانت تقبل انفعالاً، وإذا قيست إلى أفعال النفس والنبض فادت فعلا[73]. " وهذه القوة تشبه القوى الطبيعية لعدمها الإدارة فيما يصدر عنها، وتشبه القوى النفسانية لتُعين

67) نفس المصدر، ص 133.
68) نفس المصدر السابق.
69) نفس المصدر، ص 135.
70) د. سليمان قطاية، مرجع سابق، ص 289.
71) ابن سينا، مصدر سابق، ص135.
72) نفس المصدر.
73) نفس المصدر السابق، ص 136.

أفعالها لأنها تقبض وتبسط معا وتحرك حركتين متضادتين"[74].

ثالثاً- القوى النفسانية: "وهي التي تجعل للإنسان ميزته الخاصة أي العقل، فإذا كانت النباتات والحيوانات تتمتع بقوى طبيعية وحيوانية إلا أن القوة النفسانية خاصة بالإنسان لوحده ومركزها طبعاً الدماغ "[75]. وتشتمل على قوتين إحداهما قوة مدركة والأخرى مُحركة، أما المدركة فمنها مدركة في الظاهر وهي الحسية وتشتمل على الإدراك عن طريق الحواس كالإبصار والشم والذوق والسمع واللمس[76]. ومنها مدركة في الباطن وهي قوى الحس المشترك والخيال والقوى المفكرة أو المتخيلة، والقوى الحافظة أو الذاكرة والقوى الإنسانية الناطقة*.

أما القوى النفسانية المحركة: "فهي التي تشنج الأوتار وترخيها فتحرك بها الأعضاء. والمفاصل تبسطها وتثنيها وتنفذها في العصب المتصل بالعضو، وهي جنس يتنوع بحسب تنوع مبادئ الحركات، فتكون في كل عضلة طبيعة أخرى"[77].وبذلك يتم القول في القوى وأقسامها وفائدتها للأجسام، وقد شملها ابن سينا في أرجوزته:

أولاً- في الطبيعة:

سبع قوى تحسب للطباع ... على اختلاف الشكل في الأنواع
فقوة تغير المنيا ... وليس تحكي عند ذاك شيئاً
وقوة تُصّير الأجساد ... الشكل والمقدار والأعداد
وقوة جاذبة ومنضجة ... وقوة ممسكة ومخرجة
وقوة تلصق بالأعضاء ... ما يشبه الجسم من الغذاء

ذكر القوى الحيوانية:

والحيوانية قوتان ... كلاهما أفعالها قسمان
أحدهما فاعلة للنبض ... ببسط شرياناتها والقبض
وأختها تنفعل انفعالاً ... لكل شيء تحدث الأفعالاً
كالحب للشيء أو الكراهة ... أو ذللة النفس أو النباهة

ذكر القوى النفسانية:

تسع قوى تحسب للنفسانية ... الخمس منها للقوى الحسية
السمع والأبصار ثم الشم ... والذوق واللمس الذي يُعم
وقوة التخيل للأشياء ... فيها كما يكون في المرآء
وقوة بما يكون الفكر ... وقوة بها يكون الذكر

1-**الأفعال:** ويلاحظ أن القوى والأفعال مرتبطان بعضهما بالآخر، ولكن ما يجب أن يعرف من الأفعال: "إن من الأفاعيل المفردة ما يتم بقوة واحدة مثل الهضم، ومنها ما يتم بقوتين مثل شهوة الطعام.

74) نفس المصدر.
75) د. سليمان قطاية، مرجع سابق، ص 289.
76) ابن سينا، مرجع سابق، ص137.
*وسيتم الاستفاضة في شرح القوى النفسانية في الفصل القادم.
77) نفس المصدر، ص139.

فإنها تتم بقوة جاذبة طبيعية وبقوة حساسة في فم المعدة"[78]. وسبب ضرورة اشتراك قوتين في فعل واحد أنه – كما في المثال السابق– قد تصاب القوى الحساسة بمرض ما يبطل عنه الإحساس بالجوع والشهوة وعليه لن يشتهي الإنسان الطعام حتى وإن كان للبدن حاجة إليه[79].

وكل أفعال القوى كمثلها
معـــــدودة لأنهـا من فعلها
والفعل قد يُقال باشتراك
كالجذب والتقتير والإمساك
أو كنفوذ للغدا من فعلين
الحـــــس والجذب مركبين
والحس والرفع هو النفوذ
فـذاك فعل منهما مأخوذ[80].

1-**الــروح:** تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، لكل منها خصائصه:

- الروح الطبيعي وهو الذي يتكون من البخار النقي ومقره الكبد.
- الروح الحيواني وبه تبقى الحياة ومركزه القلب.
- الروح النفساني وتتكون أنواعه داخل بطون الدماغ.

ثانيــاً – أحوال البدن تشمل الصحة والمرض وحالة ثالثة لا هذا ولا ذاك،

ثالثاً – الأسباب فيقصد بها الاسباب المؤدية لحدوث المرض، وهي ستة: الهواء، وما يؤكل ويشرب، وحركة البدن وسكونه، وحركة النفس وسكنها، والنوم واليقظة.

رابعاً – علم العلامات يقصد به:العلامات التي تدل على مزاج الشخص، في حالتي الصحة والمرض، وهي كثيرة نذكر منها على سبيل المثال: سواد الشعر والبشرة، وكثرة الشحم، وسرعة النبض، وكثرة النوم،... وغيرها من العلامات التي يكون باعتدالها جميعاً اعتدال المزاج وهو أحسن الحالات[81].

وبتوضيح أقسام الطب النظري عند ابن سينا نكون قد وقفنا على أهم معالم نظريته الطبية، فقد كان الشيخ مهتما بتحليل وتوضيح وتعريف الألفاظ التي يستخدمها كطبيب ويبدو ذلك ثائراً منه بدراساته الفلسفية والمنطقية.

78) ابن سينا، القانون، ص 139.
79) نفس المصدر.
80) ابن سينا، الأرجوزة السينائية، ص ص 10-12.

81)محمد زهير البابا، من مؤلفات ابن سينا الطبية، معهد التراث العلمي العربي، دمشق 1984، ص ص ،8،9.

وبذلك يكون ابن سينا قد نظم لعلم أصول الطب ومنه يبدأ في الجانب العلاجي :

وإذا نظمت جنس حفظ الصحة

فآن أن أبدأ بمرئ العلة (82)

وهو الجزء العملي من الأرجوزة ،أي إن العلم الخاص بالجانب العملي في العلاجات ، ومنها الدوائية والتي تعتمد على الغذاء والآخر هو العلاجات اليدوية ، وهي على ثلاثة أقسام :

- العمل في العروق (أي العضد) .
- العمل في اللحم كالشرط والقطع والكي.
- العمل في العظم من خلع وجبر (83).

ثم يختم الشيخ أرجوزته قائلاً :-

وقد فرغت من جميع العمل

والآن أقطع بقول مُكمل (84).

هكذا فإن الشيخ الرئيس ابن سينا كان طبيبا تميز بالأصالة ، بالإضافة إلى التجديد والابتكار في مجال الدراسات الطبية ، فبالرغم من متابعته لنظرية الخلاط الطبية اليونانية القديمة ، فإن ذلك لم يمنعه من التجديد والاكتشاف ، والتأليف بصورة مغايرة للمنهج اليوناني الذي توافق فيه ابن سينا مع بيئته العربية في نظم الشعر العربي التعليمي في أبهى صوره، ليُسهل العلوم الطبية إلى أذهان الطلاب وتتم الاستفادة منها على أكمل وجه، كما استفاد ابن سينا من دراسته الفلسفية والمنطقية في التحليل والتعريف والتقسيم والبرهنة على المسائل الطبية المختلفة ، مما كان له أهمية كبيرة في إثراء الأرجوزة وعلو مكانتها بين المؤلفات الطبية لعدة قرون .

82)ابن سينا ، الأرجوزة . ص 167.
83نفس المصدر ، ص ص 194،189.
84نفس المصدر ، ص194.